الفصلُ الأوّل- الخبرُ والإنشاءُ:

يكادُ لا ينفصلُ الخبرُ عن الإنشاء في مُصنَّفات البلاغيين؛ فما أنْ يضعوا حدّاً للخبر حتى يُردفوه بالإنشاء؛ لأنَّهما قالبانِ متمايزانِ من التَّعبير، عماذُهما احتمالٌ أو عدمُ احتمالِ الصِّدق والكذب في القول، إلا أنَّ لكلٍّ منهما وظيفته الدَّلالية الخاصَّة به التي تُميِّزه عن غيره، وسنقف- إنْ شاء اللهُ تَعَالَى- عِندَ كلٍّ منهما على حِدة؛ لنرى القيمة التعبيرية فيهما، وعلى الوجه الآتي:

المطلب الأول- الخبر:

الخبر- لغةً واصطلاحاً:

عِندَ الرجوع إلى مُصنَّفات الأوائل من علماء اللغة نجد زبدة تعريفات الخبر تدور على أنَّه: النَّبأ، ويُجمع على أخبار، والإخبار هو الإعلام، والخبيرُ العالمُ بالأمر.

وهو في الاصطلاح البلاغي: (**كلُّ كلامٍ يحتملُ الصدقَ أو الكذبَ لذاتِهِ، دونَ النظرِ إلى قائلِهِ، باستثناءِ الأخبارِ القرآنيةِ والنبوية الشريفة، والحقائقِ العلميةِ، والبديهياتِ التي لا يُشَكُّ فيها**).

مؤكِّداتُ الخبر:

مما سبق اتضح لنا أنَّ الأُسلوبَ الخبري له علاقةٌ بظاهرة التوكيد-وجوداً أو عدماً، وقلَّةً أو كثرةً- وعلى ضوء ذلك قَسَّمَ البلاغيون الأحوالَ التي يكونُ عليها المخاطَب على: (**خلو الذهن، والتردد، والإنكار**)، ومبناهم بذلك كُلِّهِ على وجودِ المؤكِّدات وعدمها، وعلماءُ البلاغة المُتأخرون والمعاصرون استقصوها من كتب سابقيهم وحصروها في: (**إنَّ، وأنَّ، ولام الابتداء، وإمَّا، ولن، ولكن، وكأنَّ، ونوني التوكيد، وأحرف التنبيه، والحروف الزائدة، والقسم، والتِّكرار اللفظي والمعنوي، وأمَّا الشرطية، واسمية الجملة، وضمير الفصل، وتقديم الفاعل في المعنى، وقد، والسين وسوف الداخلتين على فعلٍ دالٍّ على وعدٍ أو وعيدٍ**)، فكلُّ جملةٍ جاءت مؤكَّدة بإحدى هذه المؤكِّداتِ لها مغزى خاص زائد على معناها الأصلي الذي سيقت لبيانه، ومن أمثلة ذلك ما جاء في قوله-جَلَّ شأنُهُ-: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران:٦٢]، ففي الآية

الكريمة جملةُ مؤكداتٍ؛ ضمير الفصل للحصر، ودخول اللام عليه لزيادة تأكيده، وزيادةُ(مِنْ) في قوله: ﴿**وَمَامِنْإِلَهٍ**﴾ لتأكيد العموم والاستغراق[1].

ونظير هذا المثال ما أمر اللهُ-سُبْحَانَهُ- به رسوله-ﷺ- أنْ يُجيبَ على الكفار سؤالهم المتضمن الاستهزاء والسخرية والإنكار: ﴿ **وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ** ﴾ [يونس:٥٣]، أي: هل العذاب واقعٌ حقًّا؟ أو هل القرآنُ حقٌّ ؟ فلمَّا كان هذا ديدنهم كان في هذا الجواب تأكيدٌ من وجوه: الأوَّل: القَسَم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع (نعم)، الثَّاني: دخول(**إنَّ**) المؤكِّدة، الثالث: اللام في(**لَحَقٌّ**)، الرابع: اسمية الجملة، وذلك ليدل على أنَّهم قد بلغوا في الإنكار والتمرد إلى الغاية التي ليس بعدها غاية.

أضرب الخبر:

للخبر بموجب هذا المصطلح ثلاثةُ أضربٍ بلاغيةٍ: (إنْ كانَ-المخاطَبُ- خالِيَ الذِّهن من الحُكم، والتَّردُّدِ فيه: استُغنِيَ عن مؤكِّداتِ الحُكم، وإنْ كان مُتردِّداً فيه، طالباً لهُ: حسُنَ تقويتهُ بمؤكِّدٍ، وإنْ كان مُنكِراً: وجبَ توكِيدُهُ بحسب الإنكار، كما قال اللهُ-تَعَالَى- حكايةً عن رُسُلِ نبيّه عيسى-عليه السلام- إذ كَذَّبوا في المرَّةِ الأُولى: ﴿ **إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ** ﴾[يس:١٤]، وفي الثَّانية: ﴿ **إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ** ﴾[يس:١٦]، ويسمى الضَّربُ الأوَّلُ: **ابتدائياً**، والثَّاني: **طلبياً**، والثَّالثُ: **إنكارياً**).

لذلك يمكن أن نقول: الابتدائي:(**زيدٌ قائمٌ**)، والطلبي:(**لَزيدٌ قائمٌ**)، والإنكاري:(**لَزيدٌ لقائمٌ**).

أغراضُ الخبر الأصليَّة:

للخبر غرضان أصليان عِندَ علماء البلاغة، هما الأصلُ في كلِّ خبرٍ، (**فمن المعلوم لكلِّ عاقلٍ أنَّ قصدَ المُخبر بخبره إفادةُ المخاطبِ إمَّا نفسَ الحُكم، كقولك: (زيدٌ قائمٌ) لمن لا يعلم أنَّه قائمٌ، ويُسمَّى هذا فائدة الخبر، وإمَّا كون المُخبر عالماً بالحكم، كقولك لمن زيد عِنْدَه، ولا يعلم أنَّك تعلم ذلك: (زيدٌ عِنْدَكَ)، ويسمى هذا لازمَ فائدة الخبر**).

وهذان الغرضان يُسمَّيان إخراجاً للكلام على مقتضى الظاهر، وكثيراً ما يخرج الكلام أو الخبر على خلاف ذلك؛ لعلةٍ بلاغية تُستَشَفُّ من السياق ومفهوم قرائن الأحوال، فنرى إنزال غير

[1] الاستغراق: هو الشمول لجميع الأفراد بحيث لا يخرج عنه شيء. يُنظر: التعريفات:٢٨.

السائل منزلة السائل، أو إنزال غير المُنكِرِ منزلة المُنكِرِ وبالعكس، كما هو ثابت في مصنفات المُتأخِرِينَ والمُحدَثِينَ.

ففي قوله-جَلَّ شأنُهُ-: ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٩٥]، فالتفاوت بين درجات من قعد عن الجهاد من غير عُذرٍ، ودرجات من جاهد في سبيل الله بماله ونفسه وإن كان معلوماً لكن أراد-تَعالَى- بهذا الإخبار تنشيط المجاهدين ليرغبوا، وتبكيت القاعدين ليأنفوا، وهذا من إنزال المعلوم منزلة غير المعلوم وكأنَّه أمرٌ مُنكَرٌ.

أغراضُ الخبر البَلاغيّة:

مِمَّا سبق أكتملت لدينا صورة، في أنَّ الأصلَ في كلِّ خبرٍ تقديمُ المعرفة أو العلم إلى الآخرين(الفائدة أو لازم الفائدة)، إلا أنَّه وُجِدَ عِنْدَ العُلماء المتقدمين أنَّ الخبر يفيد أغراضاً بلاغيَّةً تُفهم من السياق وقرائن الأحوال، فكما أنَّ قولك: (رَحْمَةُ اللهِ عليه... رَحِمَهُ اللهُ)، فيه معنى الدُّعَاء، كأنَّه قال: (اللهم ارْحَمْهُ)، وخروج الخبر إلى أغراض بلاغية ميادينه واسعة جداً لا تقع تحت حصر؛ لأنَّ اعتماده بالدرجة الأساس على سياق الكَلام وقرائن الأحوال، مع ما يتمتع به القارئ من ذوقٍ رهيفٍ وثقافةٍ لُغويةٍ وأدبيةٍ غير قليلة، ولهذا كُلِّهِ حظي هذا القسم باعتناء علماء البلاغة، التي من أهمها:

١- خروج الخبر إلى معنى الأمر:

من المعلوم أنَّ الأمرَ نوعٌ من أنواع أساليب الإنشاء الطلبي التي تطلب تنفيذ الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام-وسيأتي- لهُ صيغٌ ودلالاتٌ يُعرف بها، وقد يزِغَ نورُهُ هنا في الأغراض البلاغية التي يُفيدها الخبر، ويُقصد بإخراجه إلى معنى الأمر تأكيد وقوع الخبر، والشاهد على ذلك ما دار كثيراً في مصنفات أهل البلاغة وأهل اللغة، من مثل قوله-تَعالَى-: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾[البقرة:٢٢٨]، فالتربُّص خبرٌ في معنى الأمر؛ للتأكيد بإشعاره بأنَّ المأمور

به مما يجب أن يُتلقَّ بالمسارعة إلى الإتيان به، فكأنَّهُنَّ امتثلن بالأمر بالتربُّص، فأُخبر به موجوداً متحققاً، ويرادفه قوله-جَلَّ جَلَالُهُ-: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾[البقرة:٢٣٣]، فـ(يُرْضِعْنَ) أمرٌ أُخرِجَ مُخرجَ الخبر؛ مبالغةً في الحمل على تحقق مضمونه، فكأنَّه قد وقع، فأُخبر بوقوعه، والسرّ في إيثار الأسلوب الخبري في الدلالة على تلك المَعَاني الإنْشَائيّة لَعَلَّهُ الدلالة على وجوب امتثال المخاطبين لها بأسلوب التحنن وعدم التعنيف، والمبادرة بإنجازها، فكأنَّ هذه المطلوبات من شأنها ألَّا تُطلب من هؤلاء؛ بل ينبغي عليهم المسارعة إلى تنفيذها وتحقيقها حتى يُخبر عن وجودها لديهم.

٢- خروج الخبر إلى معنى النهي:

أبرز أمثلة هذا النوع قولُه-تَعالَى-: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [البقرة:٨٣]، فهذا الميثاق المنفي خبرٌ بمعنى النهي، جاء على هذه الصيغة لأنَّه من المعتاد عِنْدَ العرب أنَّها إذا أرادت المُبالغة في النهي جاءت به على صيغة الخبر، للاعتناء بشأن المنهي عنه، ولتأكد طلب امتثاله أيضاً، حتى كأنَّه امتُثِلَ فأُخبِرَ عنه، ويدل عليه قراءة أُبَيّ وابن مسعود-رضيَ اللهُ عنهُما-: ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾[1]، وكذلك عطفُ بقية الأوامر عليه، والعرب إذا بالغت في النهي عن الشيء أبرزته في صورة النفي المحض؛ إشارةً إلى أنَّه ينبغي أن لا يوجد البتة، فَدَلُّوا على هذا المعنى بما ذَكَرت.

٣- خروج الخبر إلى معنى التَّسْلِيَة والتَّأْنِيس:

القرآنُ الكريمُ مليءٌ بأخبارٍ وقَصَصِ الأُممِ السَّالفة، والخطاب فيها تشكَّلَ بأنواعٍ مُختلفةٍ، فكان لكلِّ قصةٍ أو آيةٍ من آيات التَّسْلِيَة غرضٌ خاصٌ في نسيان الهَمّ والحُزن الذي أصابَ الرسول-ﷺ- والمؤمنين، فتارة يكون الخطاب قَصَصاً؛ ليتأسَّى الرسولُ-ﷺ- والمؤمنون بمن قبلهم من المرسلين، وليتصبَّروا على ما أُوذوا من تكذيبٍ وصُدودٍ، وطوراً يكون الخطاب للمُسَلَّى خطاباً مباشراً لتقوية عزيمته، وقد يكون خاصاً للرسول-ﷺ- جرَّاء مصيبة تمرُّ به، أو للتخفيف

---

[1] يُنظر: الجامع لأحكام القرآن:١/٢٣١-٢٣٢، وتفسير ابن كثير:٩٦.

عنه من جِدَّةِ استهزاء المشركين به... ونحو ذلك من أساليب الخطاب التي جاء بها القرآنُ الكريم في عرض الأخبار والقصص، ومن ذلك تسلية الرسول-ﷺ- جرَّاء ما يمرُّ به وأصحابه من استهزاء المشركين بهم، ما جاء في قوله-تَعالَى-: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[الأنعام:١٠]، فالآية إخبار قُصد به تسلية النَّبِيِّ-ﷺ- عمَّا كان يلقى من قومه.

٤- خروج الخبر إلى معنى الترغيب:

مِمَّا لاشكَّ فيه أنَّ معظمَ الآياتِ الكريماتِ التي ذكرت الجَنَّةَ وأحوالَها وأحوالَ ساكنيها إنَّما المقصود منها ترغيب الناس فيها، فإنَّ الذِّكر الحكيمَ قد ذكر الثوابَ شيئاً فشيئاً، وإعادةُ ذكرِ المحبوب محبُوبٌ، والتطويلُ بذكرِ اللذات مُستَحْسَن، وهنا نجدُ مجموعةً من الآياتِ الكريماتِ التي وردتْ متراصَّة الدلالة على ما فيها من ذكرِ أوصاف جَنَّةِ النَّعيم، ومُراد الإخبار بها ترغيب المؤمنين خاصةً والناس عامةً، لعمل ما يستحقونها به، ومن هذه الآيات ما جاء في قوله-تَعالَى-: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[الأعراف:٥٦]، فهذا إخبارٌ من الله-سُبْحَانَهُ- بأنَّ رحمته قريبة من عباده المحسنين بأيِّ نوعٍ من الأنواع كان إحسانُهم، وفي هذا ترغيبٌ للعبادِ للخير وتنشيطٌ لهم، فإنَّ قُربَ هذهِ الرَّحمة-التي يكون بها الفوزُ بكلِّ مطلبٍ- مقصودٌ لكلِّ عبدٍ من عباد الله-تعالى-.

٥- خروج الخبر إلى معنى العِتاب:

من أبرز ذلك ما نزل بعد معركة بدر الكبرى في قصة أخذ الفداء عن الأسارى، والمشورة المشهورة بين النَّبِيِّ-ﷺ- وبين الصحابة الكرام، في كتب الحديث والتفسير، فقال-جَلَّ جَلَالُهُ- معاتباً لهم: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[الأنفال:٦٧]، فقد أخبر-سُبْحَانَهُ- أنَّ قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم وفدائهم، وهذا عِتابٌ له-ﷺ- على ترك الأَوْلَى؛ إذ كان الأَوْلَى له تدارك

كثْرة القتل فيهم لا الفداء، وليس عتاباً على فعلٍ مُحَرَّم؛ تنزيهاً لمنصب النبوة عن ذلك، وهذا من لطفه-سُبْحَانَهُ- بعباده وحسن مخاطبته لهم؛ ليُخَفِّفَ عنهم عِبءَ الرسالة وثقل الدعوة وشدة ملاقاة العدو، والله-تعالى- عزيزٌ يقهرُ الأعداء، حكيمٌ في عتابِ الأولياء.

٦- خروج الخبر إلى معنى التحسر والتحزن:

كثُر دورانُ هذا الغرض البلاغي الذي أفاده الخبر في مُصَنَّفاتِ علماء البلاغة ليشمل التحسر والتحزن على فواتِ مأمولٍ، أو فَقْدِ شيءٍ عزيزٍ على النفس، وهذا ما نحسُّه حينما نقرأ قولَ الله-تَعالَى- حكاية عن امرأة عمران[1]-: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[آل عمران:٣٦]، فالغرض من إلقاء هذا الخبر منها:﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، ليس تقديم الفائدة، أو لازمها؛ لأنَّ المخاطب هو الله-عَزَّ وَجَلَّ شأنُه- وقد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، لكن الخبر في الآية يشعرُنا بانفعالات الأسى والحسرة والحزن التي سيطرت على قلبِ الأم، فقد كانت تأمل في ولدٍ تهبه للهِ-تَعَالَى- في خدمةِ بيتِ المقدس، كما هو معلومٌ من السياق، فلمَّا وَضَعَتْها أُنثى ذابتْ نفسُها حسراتٍ؛ لأنَّها خَشِيَتْ أَلَّا يتقبَّلها اللهُ منها.

٧- خروج الخبر إلى معنى التعظيم والتفخيم:

كثيراً ما يخرج الخبر إلى معنى بلاغي يُفيد التعظيم والتفخيم، فهو غالباً ما يأتي لمدحٍ أو إظهارِ شرفٍ، وارتفاعِ منزلةٍ وعُلوِّ شأنٍ وبُعْدِ شأْوٍ، يكثر دورانُه في النَّكراتِ خاصةً، حتى جُعِلَ عَلَماً لها، وللاستنارة من هذه الأمثلة نذكرُ ما جاء في قوله-تَعَالَى-: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾[آل عمران:٣٦]، فالخبر ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾- على شرط قراءة تسكين التاء-هو قول الله-سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- لا قول أمِّ مَرْيم-عليهما السلام-، وهذا

---

[1] امرأة عمران هذه هي أم مريم-عليهما السلام- وهي حنة بنت فاقوذ، كانت امرأةً لا تحمل، فرأت يوماً طائراً يزقُّ فرخَهُ، فاشتهتِ الولدَ فدعتِ اللهَ-تعالى- أن يهبها ولداً، فاستجابَ اللهُ دعاءها، فوافقها زوجُها فحملتْ منه، فلمَّا تحقَّقتْ من الحملِ نذرتْ أن يكون مُحَرراً، أي: خالصاً مُتَفَرِّغاً للعبادةِ ولخدمةِ بيتِ المقدس، فقالتْ: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ... الآية﴾). يُنظر: تفسير ابن كثير:٢٧٥.